المعادل الموضوعي ـ مفاهيم وتطبيق

د. سميرة عمار الربـــاعي – كلية الآداب الجميل ـ جامعة صبراتة

مقدمـــة :

يعتبر هذا العمل معياراً جديداً من معايير النقد الأدبي الذي دخل حديثاً الساحة الأدبية العربية عن طريق الترجمات وهو المعادل الموضوعي ، وأول من نادى به الناقد الأمريكي (ت.س. إليوت) الذي أدهش الكثيرين حين قال : " إن الشـــعر هروب من العاطفة بتحويلها إلى فـــن "[1]

مشكلة البحث:

بدأ الباحثون العرب يشـاركون في البحث عن هذا المصـطلح في الأدب العربي وفهم ماهيته ؛ لأنه مصـطلح يتميز بخصـوصـية صـاحبه ، مما يدعونا إلى دراسـته دراسة وافية ومستفيضة ؛ لتطوير الدراسات العربية وللاستفادة منه في الدراسات المعاصرة .

أهمية الموضوع :

يرجع الفضـــل في كل هذا إلى النقاد والباحثين ، ففي كل قراءة جديدة يكتشـــفون مقياساً جديداً يضاف إلى مقاييس النقد الأدبي لم تكن معروفة من قبل ، نذكر منها على سبيل المثال مقياس المفارقة ، والآن مقياس المعادل الموضوعي وغيرهما.

خطة البحث :

قسمت البحث إلى ثلاثة مطالب ، وبما أن المعادل الموضـوعي نوع من أنواع الأسـلوب ، فقد آثرنا التحدث في المطلب الأول عن مصـطلحي الأسـلوب والأسـلوبية كمدخل للموضوع وفهم المصطلح ـــ المعادل الموضوعي ـــ عن طريقهما ، وفي المطلب الثاني تناولنا المعادل الموضـــوعي كمفهوم، وأما المطلب الثالث : دراســة تطبيقية على قصيدة للشاعر الليبي أحمد الشارف عرفاناً منَّا بفضله على الأدب الليبي واسـهاماته في تطوير الحركة الأدبية في ليبيا ، وبخاصـة أنه أحد الشـعراء المعمرين (شيخ الشعراء) طال عمره على درب الحياة ، وأسهم بالكثير في ميدان الكلمة الشاعرة وهو صاحب البيت المشهور الذي كان مطلعاً لأشهر قصائده :

رضينا بحتف النفوس رضينا ولم نرض أن يعرف الضيم فينا[2]

منهجية البحث:

وقد اتبعت في شرح القصيدة " المنهج التحليلي " ؛ وبما أن القصيدة مفهومة الألفاظ لا تحتاج لشرح ، فقد وضَّحنا طريقة الشاعر في كيفية جعل المعادل الموضوعي قناعاً للتعبير عمَّا يجول في خاطره ولا يستطيع البوح به إلاَّ بهذه الطريقة وهو ما عبرَّ عنه بعض الدارسين " أنه لا ينبغي للأديب أن يصور تجربته الشخصية تصويراً مباشراً بل يحسن به أن يبحث لتجربته الشخصية عمَّا يسميه (ت.س.إليوت) وغيره بالمعادل الموضوعي ، بل ويذهب (إليوت إلى أن الشاعر نفسه يحسن به أن يبحث عن هذا المعادل الموضوعي لتجربته الشخصية ليكسبها صفة الشمول والموضوعية ويضمن صدقها بتنحية ذاته عنها"(3) ، كما سلطنا الضوءَ على بعض الألفاظ التي استخدمها الشاعر جعلته ينكشف وراء هذا القناع في بعض الأحيان...

المطلب الأول ـ مصطلحي الأسلوب والأسلوبية :

قبل أن نتطـــرق إلى التحدث عن المعادل الموضوعي لابدَّ من الاقتناع بأن هذا المعادل الموضوعي نوع من أنـــواع "الأســـلوب" الفني الإبداعي الذي يقوم على أساس "الأسلوبية " ، وعلى الرغم من صعوبة تحديد مفهوم الأسلوب كما قـــال (لامار) : إنه "أصعب ملكات الإنسان تحديداً "[4]، فإن مفهومه واسع يجعلنا نتخبط ونحن نحصره في تعريف معين ؛ لأن "محتوى كلمة أسلوب واســع إلى حدِ أنه ينفجر غباراً من الفكرة المســتقلة إذا أخضـــعناه للتحليل "[5]، ولكن بعض هذه التعريفات قد تُشبع رغبتنا في إيجاد مفهوم ولو تقريبي لهذا المصطلح ، مما يقودنا إلى تعريف أحد مفكري القرن الثامن عشـــر على أنه ما ندر ودقَّ من خصـــائص الخطاب التي تُبرز عبقرية الإنســان وبراعته فيما يكتب أو يلفظ "[6]، وهي لحظة التواصـل بين الوجدان والعقل والمؤثر الخارجي الذي يستوحي منه أفكاره ، فالوجدان هو المحرك للعقل الذي هو طريقـة للتعبير عمَّـا يجول في الوجـدان ، وكيفيـة الانتقـاء من المحيط الخـارجي للتعبير عن نفســية المبدع بطريقة غير مباشــرة ، وهنا تســتبين العبقرية الإبداعية في "اشتقاق الأديب من الأشياء وما يتلاءم وعبقريته"[7].

وهذه الثلاثية (الوجدان ، والعقل ، والمؤثر الخارجي) هي المادة الخام التي يصـــنع بها المبدع (عمله الفني) ، لأن الأسلوب قوام الكشف لنمط التفكير عند صاحبه ... وهو بمثابة المعيار الدلالي لمحتوى الرسالة المبلَّغة ..." [8] وهو تعبير عن شخصية الكاتب / المرســـل وعقليتـه وتوجهـه الفكري"[9] ومن هنـا يبدأ الخلق والإبداع بجعل مؤثر

خارجي يرتبط بردة فعل داخلية، ينتج عنها عمل إبداعي خلاَّق ، و" يتجاوز الأسلوب حدوده التقليدية ليشمل كل عنصر خلاَّق في اللُّغة ينتمي إلى الفرد ويعكس أصالته"[10].

ولابدَّ هنا للمبدع من تميز في عملية (الخَلق الفني) ، ومهارة في اختيار الألفاظ والصور الفنية المعبرة ، التي تجعل هذا العمل مطابقاً لما يهدف إليه المبدع أو الأديب.

أي : طريقة تناول الموضوع ، وكيفية السير فيه إلى نهايته ، وهذا يحتاج إلى مهارة فنية، وأخرى إبداعيه وشجاعة أدبية لا توقفها حدود الخوف ؛ لأن النص " وحدة أيدولوجية ، تعتمد في إنتاجها طاقة خاصة ، تتوزع بين المبدع ، والشكل ، والمتلقي ، وتمارس قدراتها على المستويين السطحي والعميق ، وترمي من وراء ذلك إلى فرز ، وإنتاج الدلالتين المركزية ، والهامشية ... لتقدمها إلى المتلقي على أنها أكثر من مجرد خطاب"[11].

وتبقى وحدة المفاضلة بين النصوص الأدبية للكتَّاب هي طريقة الإلقاء أو الشكل الذي أخرج عليه الكاتب نصه ، فلكلٍ طريقته في الإلقاء (الإخراج) ولكلٍ نهج يسير عليه لطرح فكرته بحيث يمكن للقارئ أثناء القراءة تميزه من بين عشرات النصوص ، وهذا ما عبَّر عنه "جورج بوفون (1707-1788) في عمله المشهور (مقالة في الأسلوب) أن "الأسلوب هو الرجل يعني بذلك أن الكتابة الفنية تعكس شخصية الكاتب ، فهي أشبه بمرآة تبدو فيها صورة الأديب وملامحه الخاصة ، وبما أن الأشخاص يتباينون فيما بينهم في الخُلق والخَلق والملكات العقلية والعاطفية والخيالية ، كان من الطبيعي أن تختلف أساليبهم الكتابية التي تصدر عنهم وتعبر عن شخصياتهم"[12].

فلكل كاتب أو مؤلف طريقةً خاصة ابتدعها لتكون شكلاً لإخراج فكرته تسمى أسلوباً، وهذا الأسلوب خاصَّ به دون غيره ، ولا يمكن لأحدٍ أن يتعدى عليه أو يسير فيه ، وإن حدث ذلك يكون رد النقاد أو القراء (كتب فلان على طريقة أو أسلوب فلان!!!) . لماذا؟! لأن هذا الكاتب لم يبتكر لنفسه طريقة خاصة به ؛ بل أخذ طريقة سابقه ، وهذه الطريقة خاصة بذلك المبدع دون غيره .

ولهذا يرى بعض الباحثين " أن الأسلوب اختيار أو انتقاء ، وبناءً عليه تقوم الدراسات الأسلوبية بتتبع الاختيارات الخاصة بمنشئ معين لملاحظة أسلوبه الذي يمتاز به"[13]، وبما أن الأسلوب هو الرجل " كما قال بوفون ، فإن الأسلوبية هي مدى جودة صناعة هذا الرجل ، ومدى دقته في هذه الصناعة ، من حيث كيفية اختياره

للألفاظ واستعماله لها ، وكيفية صياغتها في الجمل ، وصناعة الصور ... إلى أن تصل إلى الهيئة التي خرج عليها هذا العمل ككل ، ثم كيف كانت ردة فعل جمهور القراء ؟!! وهل الحُلة الجديدة التي ألبسها الكاتب (للعمل) كانت مناسبة له أو لا ؟ وهل أبرزت جماله وحُسنه أو لا؟ كل ذلك من اختصاص الأسلوبية .

فـ"الأسلوبية علم يعنى بدراسة الخطاب الأدبي والبحث عن جمالياته من داخله" [14]، وهي - أيضاً - "تحليل لغوي موضوعه الأسلوب وشرطة الموضوعية وركيزته الألسنية"[15].

ولعلنا نصل هنا إلى أن الأسلوبية تسهم في تحليل (العمل الإبداعي) وتشريحه؛ للوصول إلى الخصائص الفنية التي يتميز بها عن غيره ، بحل ألغازها ، وتوضيح غموضها، وفهم إيحاءاتها بكل موضوعية ؛ لمعرفة المدى الذي وصلت إليه عبقرية هذا الكاتب بهذا الأسلوب المبتكر ؛ فإن أضاف الكاتب طُرقاً أخرى للتعبير غير الطُرق التقليدية أو الطرق المعروفة ؛ كان تميزه واضحاً وجلياً .

وهذا ما سنكتشفه عند دراسة النص دراسة أسلوبية ؛ لأن " الأسلوبية تحليل لخطابٍ من نوع خاص ، فهي وإن كانت تعتمد على قاعدة نظرية (لسانية أو سيميائية أو برغماتية) ، فإنها أولاً وأخيراً - تطبيق يمارسُ على مادة هي الخطاب الأدبي "[16].

المطلب الثاني ـ المعـــادل الموضوعي :

المعادل الموضوعي Objective Correlative ، مصطلح نقدي يُشير إلى الأداة الرمزية التي يستخدمها النقاد والمبدعون للتعبير عن بعض المفاهيم المجردة ، ويوظفها الشعراء لإبعاد ذواتهم وأحاسيسهم عن العمل الإبداعي ، يوفر مصطلح المعادل الموضوعي عنواناً للطريقة التي يقدم بها الفن مجموعة من التمثيلات التي قد لا يُصرح بالعاطفة فيها ، لكنَّها ــ التمثيلات ــ تعبر عن هذه العواطف، وهو " معادل خارجي لحالة ذهنية داخلية " يتمثلها الشاعر خاصة انطلاقا من نظرية إليوت"[17]. المعادل الموضوعي وسيلة المبدع لتوصيل رسالته ، وهذا لا يتوفر إلاَّ للكاتب أو الشاعر أو الرسام المبدع ولا يمكن توفره لدى الفنان العادي ، فالفنان العادي ليس لديه معادل موضوعي ؛ لأنه يصرح عن أفكاره وأحاسيسه وانفعالاته ... مباشرةً بينما المبدع يكشف عن ذلك باي شكل من أشكال الإبداع ، وتبقى شخصيته أو ذاته بعيده عن هذا العمل؛ لعدم تصريحه المباشر ، وهذا ما عبَّر عنه الناقد الأمريكي

ت.س.إليوت عندما قال : " الشـــعر هروب من العاطفة بتحويلها إلى فن ، أو الشـــعر هروب من العاطفة وليس تعبيراً لها"[18].

ولتقريب هذا المصـــطلح للقارئ أو الباحث نرى أن (المعادل الموضـــوعي) بمثابة الإناء الذي تفرَّغ فيه المشـاعر والأحاسـيس والانفعالات ، التي يقوم القارئ أو الناقد بشربها وتقييمها ثم معرفة المباشرة من اللامباشرة في العمل ثم الحكم عليه ، فلا داعي لكل هذا الخلط والتخبط لمعرفة المصطلح وفهم معناه فأي (عمل فني إبداعي) قد يكون معادلاً موضـوعياً لكاتبه ، هذا إن لم تكن كل أعمال الكاتب (معادلاً موضـوعياً) لتجارب عاشها وأراد الافصاح عنها بطريقة غير مباشرة ، فهي لابدِّ أن تمت له بصلة ولو من بعيد ؛ لأن شحنة الأحاسيس والانفعالات هي من تخلع قناع اللامباشرة عنه.

(والمعادل الموضـوعي) ترجمة لحالة سـيكولوجية عاشـها الكاتب لا يسـتطيع التعبير عنها مباشـرة ، ومن ذلك على سـبيل المثال ما قاله الدكتور على البطل : "المرأة في الغزل العذري معادل موضـوعي لصـورة الحرمان التي عاشـها البدوي في باديته التي افتقرت إلى أدنى الشروط التي يجب أن تتوافر لإنسان يعيش في مجتمع يهدف إلى بناء حضارة بمستوياتها كافةً"[19].

فبدل أن يعبر عن الحرمـان عبر عن حبـه للمرأة هروبـاً من الإحســـاس بهذا الحرمان ، وهذه الطريقة منفذ فني احترافي للهروب من المشاعر الحقيقية .

ومن ذلك مـا فعله توفيق الحكيم في " بحثه لتجارب حياته الحميمة عن معادل موضـوعي" لينأى بتلك التجارب عن الضـوء وأنظار المواطنين ، فنسـتطيع أن نجد مثلاً واضـحاً لهذا الاتجاه في علاقته بالمرأة وموقفه منها وتردده الشـديد بين الإقبال عليها والانصراف عنها لينقطع للأدب والفن ، بل لقد اختار للمعادل الموضوعي الذي يعبر عن هذا الموقف صـورة المسـرحية ، كفن موغل في الموضـوعية ، قلما يسـمح بظهور شـخصـية المؤلف من خلاله ، وتعتبر مسـرحية "بجماليون" أوضـح مثل لهذه الحقيقة فبطلها الفنان بجماليون هو توفيق الحكيم نفســـه في موقفه من المرأة وتردده بينها وبين الانقطاع للفن"[20].

وما رأينا قد يكون (المعادل الموضـوعي) هو الموضـوع نفســه ، وقد يكون بطلاً في رواية أو مسـرحية أو صـورة على لوحة أو شـيء يمثل شـخصـية الكاتب كـــ"الجبل" في بائية ابن خفاجة الأندلسي[21] ، الذي لجأ إليه ليبتعد بعواطفه عن أنظار الناس فجعله وعاءً صب فيه كل أحاسيسه ومشاعره وجُلَّ غضبه .

" إن العواطف شيء فردي مختص بالفرد الذي يعانيها ، وهي - أيضاً - ذاتيه بحيث لا يمكن لنا الدخول في عقل الفرد أو في وجدانه ، ولكي نفهم ما يجول في خاطر فرد من الأفراد ... فإن هذا الفرد سيكون مضطراً لأن "يترجم" مشاعره الذاتية إلى ما يسميه إليوت "معادلاً موضوعياً" والمعادل الموضوعي هو ذاته اللغة الشعرية أو الفنية التي يفهمها الجميع ويملكها الجميع لا فرد واحد"[22].

ويمكن تقريب الفكرة أكثر بقصة "الأيام" لطه حسين ، والتي كانت معادلاً موضوعياً أفرغ فيها كل ما عاناه من ألم في صغره وكشف كل العقبات التي صعب تخطيها مع فقدانه النظر ، ورغم ذلك استطاع بقوة إرادته الوصول إلى التميز في مجال عمله ، فكان يرمز لنفسه في هذه القصة - التي كان هو بطلها والتي كشفت عن شخصية طه حسين المكافح - بـ"صاحبنا ، الصبي ، الفتى ، ذلك الملك ، هو ، كان..."[23] .

ثم عرفنا من شحنة الانفعالات والأحاسيس الهائلة أنه بطلها ، وأنها "سيرته الذاتية" وهي محاولة منه للهروب من العاطفة التي حولها إلى فن وهو يرتدي قناع الفتى أو الصبي أو الملك...

المعادل الموضوعي سلسلة من أحداث (أو وضع معين) تجعل انفعالاً ذاتياً معيناً شيئاً موضوعياً وكما قال إليوت "حينما تعطي الوقائع الخارجية التي لابدَّ أن تنتهي بخبرة حسية يستثار الانفعال على الفور"[24].

ومن هنا يمكن اعتبار المعادل الموضوعي مقياساً جديداً من مقاييس النقد الأدبي ، به يعرف مدى إبداع الكاتب ، وإلى أي مدى وصل به هذا الإبداع ؟ وهل استطاع إيصال الفكرة للقارئ كما ارتآها ولم تُكشف شخصيته فيها ؟.

فالمعادل الموضوعي وسيلة للبوح بكامل ما يجول في خاطرك دون قيود ولا تردد ، لأنه المرآة التي تكشف كل أسرارك ، وتقدم لك صورة عن نفسك وأنت ترتدي القناع !!! ومن هنا جاء سر نجاح بعض الأعمال الفنية العالمية ، الذي لا يماثله نجاح ؛ لأنها مملوء بشحنة كبيرة من المشاعر والأحاسيس والعاطفة الصادقة المتدفقة التي لا تماثلها عاطفة ، ومنها على سبيل المثال لا الحصر مسرحية " هاملت " لشكسبير وقصة "الأيام" لطه حسين وغيرهما .

هذا لأن "مخيلة الشاعر تكشف نفسه ، كيف تُعرّف ؟ ـ نفسه ـ ... فمن الممكن أن نفترض أن الشاعر العظيم ـــ شكسبير ـــ يشاركنا "إنسانيتنا" ، ولسنا بحاجة إلى دليل صوري إلى كتبه لنعرف ذلك ، ولو أن قيمة دراسة الصور تكمن في كشف شيء

مستغلق ، فمن المفروض أنها تمكننا من قراءة بعض الإشارات الخاصة وتكشف أمامنا أسرار قلب شكسبير ، وبدلاً من أن نكشف في مخيلة شكسبير إنسانيته الشاملة ، فقد نتمكن من إيجاد نوع من التقارير المبهمة عن صحته النفسية ، كما كانت حين يؤلف مسرحية معينة"[25].

ولهذا يلجأ الأدباء إلى هذه الطريقة ، حتى بعد اكتشاف بعض القُراء والنقاد لها وكشف أسرار مؤلفيها ؛ لأن "الطريقة الوحيدة للتعبير عن الانفعال في صورة الفن، هي العثور على معادل موضوعي"[26].

فيصبح العمل الفني الإبداعي دلالة على نفسية صاحبه وتطوراتها ، بتحفيز من المؤثرات الخارجية التي هي سبب انفعال الأديب وطريقته في التعبير ؛ ليصبح لدينا عمل فني متكامل ، وهذا النهج الذي سلكه عمالقة الأدب ؛ لتخرج أعمالهم بهذه العظمة والشهرة ، فهي طريق يكون فيه الأديب حاضراً غائباً ، يكون حاضراً في عمله غائباً عن الأنظار فهو " كالإله في الكون ، حاضراً في كل مكان غير منظور في أي مكان "[27] وهو بهذا وصل إلى الغاية القصوى لتحقيق هدفه من هذا النص في الإيحاءات التي تحملها العبارات ، والطريقة التي عالج بها هذا الموضوع .

ذلك أن وظيفة التعبير في الأدب لا تنتهي عند الدلالة المعنوية للألفاظ والعبارات ، يضاف إليها مؤثرات أخرى تكمِّل هذا العمل ، هذه المؤثرات هي الإيقاع الموسيقى للكلمات والعبارات والصور والظلال التي يشعها اللفظ والعبارات ، ثم طريقة تناول الموضوع والسير فيه، أي الأسلوب في عرض التجارب ... [28]

ويمكن للقارئ أن يلحظ ذلك في النصوص التي بين يديه ، فيعرف أنها (معادل موضوعي) لحالة أراد الأديب عدم الإفصاح عنها ، فاستعمله الأديب كحيله للتمويه ، ولكن قد توجد بعض الإيحاءات التي تكشف تلك الحيلة ، ومنها مثلاً قصيدة الشاعر الليبي (شيخ الشعراء) أحمد الشارف الموسومة بـ"جيل وجيل" ، وهي عبارة عن رسالة شعرية من والدٍ إلى ولده يقول فيها[29]:

1. بُنيّ أريد وأنت تريـــــــد ... وبيني وبينك شأو بعيـــد
2. وإني خُلقت لعصر مضـــــى ... وأنت خُلقت لعصر جديـدْ
3. طعامي كما أشتهي واحـــــدٌ ... وأنت الذي تشتهي أن يزيدْ
4. تحب الملاعق فوق الصحـون ... وتأبى الأصابع فوق الثريد[30]

5. وها أنت تقفز في المشي قفــزاً وها أنا أمشي رويداً رويــدْ
6. وما كنت أعرف حلــق اللحى وأنت ترى الحلق أمراً أكيـدْ
7. كلانا بما عنده قانـــــــــع فمنيِ القديم ومنك الجديـــدْ
8. وكل جديد كما قد تـــــــرى يبيد ومن ذا الذي لا يبيـــدْ
9. وهب أن لي في زماني حيـــاة تقضت ولكن حياة الجمـــودْ
10. لك الإذن في جبر ما فاتنـــــي تفيد بني العصر أو تستفيـــدْ
11. وما فات لم أستطـــــــع رده وقد كان أقسم أن لا يعـــودْ
12. بني استقم يابنيّ استقـــــــم لتأمن من هول يوم الوعيـــدْ
13. وكن لي على جانب لـــــين ولا تك لي مقمعاً من حديـــدْ
14. وخذ ما كفى من شؤون الحياة وأجمل إذا ما طلبت المزيـدْ
15. وجودك مني وقد نلتـــــــه فهل أنت تنكر فضل الوجودْ
16. فكم جلب الشكر من نعمـــــة وكم ذهبت نعمة بالجحـــودْ
17. وعنوان فضلك لا تنســـــــه كفاك من النظم بيت القصيدْ

التحليل :

قصيدة (أحمد الشارف) تصلح لدراسة أحد مقاييس النقد الأدبي الحديث ألا وهو (المعادل الموضوعي) من خلال هروب الشاعر من العاطفة وإنكار إحساسه بالعجز والشيخوخة ، بحيث يبدو للوهلة الأولى أنه ينصح ابنه ، فلبس الشاعر القناع ـ قناع نصيحة الابن ـ وأخفى وراءه الحقيقة ، وجعل من ابنه (معادلاً موضوعياً) صب عليه كل ما يشعر به حقيقة ، ويمكن ملاحظة ذلك من بعض الألفاظ والعبارات التي استخدمها الشاعر في أبياته ، وهي عبارات ذات خصائص مميزة ومؤثرة في النص ، جعلت الشاعر يتتبع أسلوباً خاصاً في شعره في مثل قوله في صدر البيت الثاني وعجزه :

وإني خُلقت لعصرٍ مضى وأنت خُلقت لعصرٍ جديد

حيث بدأت الحسـرة واضـحة في ألفاظه ، على عمره الذي مضـى هدراً من البيت الثاني في القصـيدة ؛ لأن البيت الأول كان تمهيداً للدخول في الموضـوع ، وهذا يدل على انفجار شحنة العواطف المكبوتة سريعاً عند الشاعر بعد المطلع مباشرةً ، ثم يتابع في البيتين الثالث والرابع بعقد مقارنة بينه وبين ابنه ، ثم يعود إلى التألم والتحسر على شبابه الذي مضى بقوله في البيت الخامس :

وها أنت تقفز في المشيِ قفزاً وها أنا أمشيِ رويداً رويدْ

هذا البيت بخاصـةٍ يتدفق حزناً وحسرة وألماً على ما مضى من أيام الشباب ، وكيف مضى العمر سريعاً ولم يشعر به ؟!! وها هو يرى نفسه في ابنه ، وكأنه يقول :

ياليتني أكون مثلك ... ، فالقارئ يستطيع الشعور بحرارة التأوهات في أنفاس الشاعر ، من هذا البيت المملوء بـالإحسـاس والعاطفة الحزينة ، ويتابع الشـاعر خطابه بهذه المقارنة في الأبيات السـادس والسـابع والثامن ، ثم تفيض المشـاعر التي تفصـح عن حقيقة شعوره في البيت التاسع والذي يقول فيه :

وهب أن لـي في زماني حياة تقضَّت ولكن حياة الجمود

هنا يجب علينا الوقوف طويلاً أمام عبارة "ولكن حياة الجمود" هذه العبارة أفصحت عن حقيقة مشاعر الشاعر ، وهي عدم الرضا عن حياته في شبابه ؛ لأنها حياة جامدة كما عبَّر عنها ، وكأنه يتمنى أن يعيش حياة ابنه ، حياة العطاء ، وليسـت حياة الجمود والحرمان كحياته، مع العلم أنه أعلمنا بأنه قانع بما عنده ، ولكن يعود ويسـتدرك ذلك بوصف حياته "بالجمود" .

يقول ياليته يستطيع تصليح ما فاته ، ولكن بإيحاءٍ جديد وبعبارة استطاع فيها تحويل هذه الأمنية إلى (المعادل الموضوعي) في البيت العاشر في قوله : " لكَ الإذن في جبر ما فاتني" ، وبذلك وظَّف هذا الإيحاء بطريقة إبداعية خاصـة به ؛ لتتحول من الشـاعر نفسـه إلى المعادل الموضـوعي وهو (ابنه) ، وهذا "الأسـلوب القوي هو تعبير عن انفعال قوي عند الكاتب ، وعن إيمان بصـحة ما يذهب إليه من أفكار، فإذا اطلع عليه القارئ أو السامع اهتز كيانه وألهب عاطفته ، وحفّز عقله على التفكير" [31].

وفي البيت الحـادي عشـر ، كـأنـه يقول يـا ليتني أسـتطيع إرجـاع المـاضـي فيذكرنا بقول أبي العتاهية :

فياليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما فعل المشيبُ[32]

ولكن الفرق بين بيت الشـــارف وبيت أبي العتاهية ، أن الثاني صـــرح بذلك مباشرة ، أمّا الأول جعل واسطته المعادل الموضوعي المتمثل في ابنه .

ثم يرجع لنصـيحة ابنه وهي ظاهر القصـيدة بأسـلوب إبداعي لم يخل ببناء القصـيدة ، وبقيت العناصـر البنيوية لها متماسـكة ؛ مما شـكل أسـلوباً التوائياً خاصـاً بالشـاعر ، في قوله : " بنيّ استقم يا بنيّ استقم" وهو رجوع متقن بأسلوب " التكرار الطلبي" للفت انتباه القارئ بأن الشاعر مازال ينصح ابنه .

وأما البيت الثالث عشـر ، كان بمثابة المرآة التي كشـفت عن المغزى والهدف من النصيحة ، وهو (الخوف من الشيخوخة) في قوله : " وكن لي على جانب ليّـــــن" ، والخوف من قسوة ابنه عليه في قوله : "ولا تكُ لي مقمعاً من حديدْ " ، ثم يختم الشاعر قصيدته بحكمة رائعة في البيتين الأخيرين لتكون ـ الحكمة ـ نهاية الرسالة .

"فكم جلب الشكر من نعمة "وكم ذهبت نعمة بالجحـود"

"وعنوان فضلك لا تنسـه "وكفاك من النظم بيت القصيد"

عجز البيت الأخير وكأنه يوحي لابنه بإشارة ، هل فهمت مقصدي ؟

وهكذا "يتـــم اكتشاف الكاتب (أو الفنان) بطريقة أدق من تتبع "سيرته الذاتية" ، وهو يتـــم بالرغم من كل محاولة جاهدة لتحاشيه ... إذ إن ما يعبّر الكاتب عنه حقاً هو طبعه وشـخصـيته العميقة وما يفضـله وما ينفر منه ، ومظهره ونمط حياته ونفوذه واتزانه وحيويته وفتوره ... [33]

يمكن أن يكون ذلك صحيحاً إلى حدٍ ما ؛ لأن من سيرة حياة "أحمد الشارف " عرفنا أنه أحد الشعراء المعمرين، فقد ولد سنة 1864م ، وتوفي سنة 1959م ، فكان ذلك دافعاً له للخوف من العجز مع طول العمر ، فقد عاش قرابة المائة عام ونيِّف ، بحيث جعل ما يخافه وينفر منه مدفوناً ومستوراً ، ولجأ إلى (المعادل الموضوعي) ، وهو النصيحة لأحد أبنائه ، وبذلك أبعد ذاته عن الموضوع واختبأ وراء قناع النصيحة .

فـــ"كل دربة خفية في نفس الكاتب ، وكل تجربة في حياته ، وكل صفة من صفاته الروحية تتجلى في مؤلفاته بيد أننا نحتاج إلى النقاد ليشرحوا لنا هذه وإلى كُتَّابِ السير ليعرضوا لنا تلك". [34]

"ودورنا - كقراء - فك شِفرة (المعادل الموضوعي) لتحويله مرة أخرى إلى مشاعر ، بهذه الطريقة نستطيع أن نتواصل وجدانياً مع الشاعر".[35]، وهذا لا يتأتى إلا عندما يعيش القارئ حالة الشاعر - تجربته - فيصبح كل شيء مرئياً أمامه ، وكأنه يتحدث عن نفسه .

ويرى رشاد رشدي أن (المعادل الموضوعي) " نظرية بسيطة للغاية ، وهي في الواقع قانون من قوانين الفن لم يكن لـــ(إليوت) فضل ابتكاره بقدر ما كان له فضل اكتشافه ، ولكن رغم بساطتها فقد كان لها أثر فعَّال في النقد والخلق على السواء... فكما أنها أصبحت مقياساً توزن به الأعمال الفنية وتساعدنا على تفهمها كذلك أصبحت نبراساً يهتدي به الكتَّاب في كتاباتهم..."[36]

الخاتمـــــة :

الحقيقة المستخلصة من هذه الدراسة ، هي أنَّ هناك شعراءَ ليبيين قد أبدعوا باستعمال أحد مقاييس النقد الأدبي الحديثة في أشعارهم ، واستطاعوا مجاراة تطور العصر الحديث دون أن نلاحظ ذلك ، وليس علينا كباحثين إلاَّ إظهارها وشرحها للقرَّاء لإثبات ذلك، وبهذا تكون هذه الدراسة شاهداً على خطوة جديدة من خطوات الدراسات النقدية المعاصرة في أدبنا الليبي الحديث ، وبهذا نكون قد وصلنا إلى النتائج التالية لهذا البحث :

1. عرفنا أن المعادل الموضوعي وسيلة المبدع لتوصيل رسالته بطريقة غير مباشرة بكل شجاعة، ودون تردد ؛ لأن ذاته بعيدة عن هذا العمل الفني الإبداعي.
2. المعادل الموضوعي سلسلة من الأحداث التي يقوم صاحبها بإلباسها لغيره لعدم قدرته على البوح بها ، وبذلك يصبح – المعادل الموضوعي – وسيلة للكشف عمَّا يجول في خاطره دون قيود أو شروط.
3. تعرفنا على طريقة هروب الشاعر (أحمد الشارف) من الحقيقة وإلباسها لابنه.
4. وأخيراً سبحنا في أعماق مقياس جديد من مقاييس النقد الأدبي الحديث ، وتعرفنا عليه ولمستاه من خلال قصيدة الشاعر (أحمد الشارف)

التوصيات:

ولعل هذه فرصة لحث بعض الدارسين والباحثين على دراسة الأدب الليبي ، وكشف مهارة مبدعيه سواء في الشعر أو في القصة أو الرواية أو المسرحية وغيرها ؛ للوصول إلى النديَّة للآداب العربية والغربية .

الهوامـــش :

(1) أخبار الساعة 21:11 . www.okaz.com.sa>article .السعودية ، صحيفة عكاظ ، الأربعاء 19 رجب / 1434 هـ ، الأربعاء 29 مايو 2013
توماس ستيرنز إليوت : ولد في أمريكا ، ثم أصبح من الرعايا البريطانيين ، شاعر ومسرحي وناقد، حائز على جائزة نوبل في الأدب ، صاغ مصطلح "المعادل الموضوعي" أثناء دراسته لمسرحية "هاملت" لشكسبير .
ويكيبيديا ـ الموسوعة الحرة .
<https://ar.M.wikipedia.org>wki ت.س...

(2) أحمد الشارف دراسة وديوان ، علي مصطفى المصراتي ، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ط3 ، 1430هـ ، 2000 ، ص103.

(3) الأدب وفنونه ، د. محمد مندور ، نهضة مصر ، القاهرة ، د.ط ، 2000م ، ص85.

(4) نقلاً عن : في الأسلوب الأدبي، د. علي بو ملحم، دار ومكتبة الهلال، بيروت، د.ط، د.ت، ص5.

(5) نقلاً عن : المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

(6) نقلاً عن : الأسلوبية والأسلوب ، د. عبد السلام المسدِّي ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت ـ لبنان ، ط5 ، 2006م ، ص56.

(7) نقلاً عن : المصدر نفسه ، ص55.

(8) المصدر نفسه ، ص52.

(9) نقلاً عن : البلاغة والأسلوبية ، نموذج سيميائي لتحليل النص ، هنريش بليت ، تر.د.محمد العمري أفريقيا الشرق ، المغرب ، د.ط ، د.ت ، ص52 ، وينظر الأسلوبية مدخل نظري ودراسة تطبيقية ، د. فتح الله أحمد سليمان ، تقديم : طه وادي ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ، ط1 ، 1428هـ – 2008م ، ص7.

(10) علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته ، د. صلاح فضل ، دار الشروق ـ القاهرة ، ط1 ، 1419هـ – 1998م ، ص13.

(11) الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية ، د. عبد القادر عبد الجليل ، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان ـ الأردن ، ط1 ، 1422هـ – 2002م ، ص140.

(12) الأسلوبية والبيان العربي ، د. محمد عبد المنعم خفاجي ، د. محمد السعدي فرهود ، د. عبد العزيز شرف ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ط1 ، 1412هـ – 1992م ، ص12 ، وفي الأسلوب الأدبي ، د. علي بو ملحم ، مرجع سابق ، ص62.

(13) البلاغة والأسلوبية ، د. يوسف أبو العدوس ، الأهلية للنشر والتوزيع ، الأردن - عمان ، ط1 ، 1999م ، ص162.

(14) مدخل إلى الأسلوبية، أ. أحمد الهادي رشراش، دار النخلة للنشر، المنشية، ط1، 2007، ص114.

(15) دليل الدراسات الأسلوبية ، د. جوزيف ميشال شريم ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ـ لبنان ، ط2 ، 1407هـ – 1987م ، ص37 ، 38.

(16) الأسلوبية ، جورج مولينيه ، تر. د. بسام بركة ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط1 ، 1420هـ – 1999م ، ص20.

(17) نقلاً عن : مجلة الأثر ، المعادل الموضوعي في النقد الأنجلو - أمريكي الجديد ، دراسة في المصطلح والمفهوم والمرجعيات ، أ. أحسن دواس (طالب دكتوراه) جامعة الإخوة منتوري قسنطينه ـ الجزائر ، ع 26/سبتمبر 2016 ، ص 48.
Htt://revues.unv-ouargla.dz>index.php
وينظر ويكيبيديا الموسوعة الحرة
https://ar.M.wikpedia:orgwiki
15 يناير ، 2018م ، الساعة 8:20.

(18) أخبار السعودية ، صحيفة عكاظ ، الموقع السابق نفسه .

(19) ما المعادل الموضوعي ؟ هدى عبد العزيز said ، منتدى شبكة الفصيح لعلوم اللغة العربية . Alfaseeh.com>.showthread ، 2015/12/7 ، الساعة 03:42 PM .

(20) الأدب وفنونه ، د. محمد مندور ، مرجع سابق ، ص 86.

(21) ديوان ابن خفاجة، تح. د. عمر فاروق الطبَّاع، دار القلم، بيروت ـ لبنان، د.ط، د.ت، ص49،48،47.

(22) أخبار السعودية ، صحيفة عكاظ ، الموقع السابق نفسه .

(23) الأيام ، طه حسين ، دار المعارف ، القاهرة ، ط7 ، 2007 ، الأجزاء الثلاثة .

(24) معجم المصطلحات الأدبية ، إبراهيم فتحي ، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين ، طبع التعاضدية العمالية للنشر والطباعة ، تونس - صفاقس ، ط1 ، 1986م ، ص 335 ، 336.

(25) نظرية الأدب ، رينيه ويليك أوستن وارين ، تر. محي الدين صبح ، مراجعة د. حسام الخطيب ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، د.ط ، 1987م ، ص218.

(26) النقد الأدبي ، د. محمد غنيمي هلال ، دار العودة ، بيروت ، ط1 ، 1982م ، ص323 ، ومعجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، مجدي وهبه ، وكامل المهندس ، مكتبة لبنان ـ لبنان ، ط2، 1984م ، ص370.

(27) دليل الدراسات الأسلوبية ، د. جوزيف ميشال شريم ، مرجع سابق ، ص61.

(28) ينظر النقد الأدبي ، أصوله ومناهجه ، سيد قطب ، دار الشروق ، القاهرة - مصر ، ط10، 2010م، ص40.

(29) أحمد الشارف ، دراسة وديوان ، علي مصطفى المصراتي ، مصدر سابق ، ص314 ، 315.

(30) الثريد : خبز مقطع وعليه لحم ومرق ، وتعود هذه الأكلة إلى فترة ما قبل الإسلام ، لسان العرب، ابن منظور ، دار صادر ، بيروت ، ط1 ، 2000م ، مادة (ثرد) .
(31) في الأسلوب الأدبي ، د. علي بو ملحم ، مرجع سابق ، ص62 .
(32) ديوان أبي العتاهية ، لأبي العتاهيه، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1406هـ-1986م، ص46.
(33) دليل الدراسات الأسلوبية ، د. جوزيف ميشال شريم ، مرجع سابق ، ص61.
(34) أخبار السعودية ، صحيفة عكاظ ، الموقع السابق نفسه ، العدد نفسه ، الساعة نفسها .
(35) نقلاً عن : مجلة الأثر ، المعادل الموضوعي في النقد الأنجلو – أمريكي الجديد ، دراسة في المصطلح والمفهوم والمرجعيات ، أ. أحسن دواس ، المرجع السابق ، العدد نفسه ، ص48.